سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(9) صناعة الفقه: المقاصد الشرعية والسياسية عند علال الفاسي

الحلقة الثانية

السلاطين العلماء والمحاولات الفاشلة لإصلاح القرويين

ظل التقليد الفروعي المالكي، يمثل عبئاً ثقيلاً على حرية الفكر، والتجديد، والاجتهاد، وازداد ترسخاً في الأذهان، كون كل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بعد دولة المرينيين مثلوا دول تقهقر حضاري، شغلهم الشاغل هو رد ثارات الأعداء الخارجيين على الثغور المغربية، التي سقطت الكثير منها في أيديهم، واستعصى على الملوك اللاحقين استردادها منهم.

وكان لفقدان الصلة بالأندلس أثره المدمر على الحياة الفكرية، حيث مثلت الأندلس يومها، بحكم موقعها وتدافعها مع أوروبا، وما كانت تزخر به من عمران وحرية فكر بيئة حاضنة طبيعية للمجتهدين ومجددي الفكر، على ما شهد به تاريخها الحافل.

والمؤسف، هو أن بالرغم من انتقال الكثير من أهل الأندلس بعد سقوطها إلى المغرب، إلا أنهم لم يتوفر لهم قط ذلك الجو المفعم بالحرية، الذي ألفوه في ديارهم، ولا أن هذا المطلب كان من المطالب الملحة للدولة المغربية القائمة التي احتضنتهم وشغلتهم في مآرب ضيقة تتنافى ومطلب الاجتهاد، ليعملوا كمشتل في هذه البيئة المغربية الشحيحة القطر، والمتقلبة الطقس، والقليلة الأمصار، والمتجذرة في البداوة وعدم الاستقرار، كي يمكن تبيئة العلم من جديد وخلق الظروف المواتية لإنماء الفكر، على غرار ما حصل أيام المرابطين والموحدين.

وكانت قد واتت الدولة السعدية (960 هـ/ م1553 – 1069 هـ/ 1659 م)، التي سبقت الدولة العلوية في حكم المغرب، فرصة تاريخية حقيقية من أجل النهوض والتواصل مع العالم الخارجي ممثلة في سلطانها: احمد المنصور السعدي (985 هـ/1578م – 1011 هـ/ 1603)، الذي كان قد اكتسب خبرة سياسية وعسكرية قبل التمكن من حكم المغرب، بمساعدة مباشرة من الباب العالي العثماني الذي أمده وأخيه عبد الملك[1]، بالجيش الضروري لاسترداد ملكهم من ابن أخيهم المتوكل[2]، كما جمعه حلف استراتيجي مع كل من ملكة بريطانيا إليزابيث وحكومة الأراضي

[1] توفي عشية المعركة الفاصلة بين البرتغال والمغرب، المعروفة بمعركة وادي المخازن أو "معركة الملوك الثلاثة.

[2] كان للسلطان أبي عبد الله الشيخ ثلاثة أبناء وهم: عبد الله الغالب بالله و عبد الملك وأحمد المنصور. وقد تولى عبد الله الغالب بالله السلطة بعد مقتل أبيه وبويع سنة 965هـ وحكم إلى سنة وفاته سنة 981هـ، وبويع لولده المتوكل: أبي عبد الله محمد بن عبد الله السعدي، الذي انتظم له الملك إلى سنة 983هـ عندما هاجمه عماه عبد الملك وأحمد بجيش تركي، بعد أن ظل المتوكل يضمر السوء بعميه ويتحين الفرصة للفتك بهما، ففرا

المنخفضة، إلا لتتغلب عليه شقوة العزلة، ويفضل الاتجاه نحو الصحراء لاستغلال ذهب السودان (تمبكتو)، بدل الاتجاه نحو البحر، الذي كان يفرضه موقع المغرب الجغرافي والسياسي (الجيوسياسي)، خصوصاً وأنه استطاع أن يجاري النهضة العسكرية في أوروبا وانشأ جيشاً نظامياً محترفاً، كما أقام اسطولا حربيا قويا الى جانب اسطوله التجاري، المكون من بواخر طلبها من حليفتيه انكلترا وهولندا، بل استطاع صنع بعضها محليا بمساعدة فنيين أجانب، كما تمكن من صنع مدافعه محلياً في ترسانة مراكش، عندما تم اكتشاف معدن النحاس سنة 946هـ/ 1539م بجبل تنزار. وصنع بعضها أيضاً من البرونز، كما صنع القنابل.

أضف إلى ذلك أنه كان يحتكر سلعتين مطلوبتين أوروبيا وهما السكر، الذي توسعت الدولة السعدية في زراعته، والذهب المستجلب من السودان.

وستظهر هشاشة الحكم السعدي للعيان، بمجرد أن حل بالبلد جفاف دوري، جعل المنصور يفقد أبهته في أواخر أيامه ويقضي هو نفسه في الطاعون الذي كان يصحب عادة هذه السنين العجاف، ليورث ابنه "زيدان" (ت: 1037 هـ/1627 م) من بعده مشاكل لا أول لها ولا آخر، ستفضي في آخر المطاف إلى أفول الدولة بعد أقل من ستة عقود من وفاة عظيمها المنصور، وليهدم قصر البديع (صورة لأطلاله) الذي جلب له المنصور الصناع من المغرب وأوروبا ودفع في تشييده الغالي والنفيس، إلا لتتوزعه شقاوة المغاربة أحجارا بعد أن هدمه المولى إسماعيل العلوي (1082 هـ/ 1672م – 1139 هـ/ 1727 م)

منه إلى الجزائر، متحينين بدورهم للانقضاض عليه. وسوف يلقى التوكل حتفه مع حليفه الملك البرتغالي الدوم سياستيان (1557- 1578) (Dom Sebastian) {مهدي البرتغال: أنظر المهدي اللامنتظر على هذا الموقع} في معركة وادي المخازن {أ حد روافد نهر لوكوس شمال المغرب قرب مدينة العرائش } سنة 986هـ/1578 م. وقد أقام عبد الملك وأخوه أحمد بسجلماسة سائر أيام أبيهما، فلما توفي وخلفه ابنه الغالب بالله، فرا إلى تلمسان ومنها إلى الجزائر ثم القسطنطينية حيث أسعفهما السلطان سليم العثماني بالجند.

سنة 1107 هـــ/ 1696م، في نزقة من نزقاته ليشيد بهديمه هديم مكناسة الزيتون العاصمة الجديدة لإسماعيل!.

ولن يختلف الأمر بالنسبة ل **الدولة العلوية**، التي حلت مكان **الدولة السعدية**. حيث ان ملوكها الأول لم يكونوا لا **بعلماء** ولا بأصحاب **مشروع حضاري** حال ما كان عليه: **المرابطون** و**الموحدون**، وإنما خلفوا السعديين في مطلب متعثر قديم وهو القيام بالجهاد لاسترداد الثغور المحتلة من طرف البرتغاليين والأسبان، بعد أن فشل السعديون في تلك المهمة من قبل، إلى أن حل عهد السلاطين العلماء الممثلين بثلاثة سلاطين وهم :

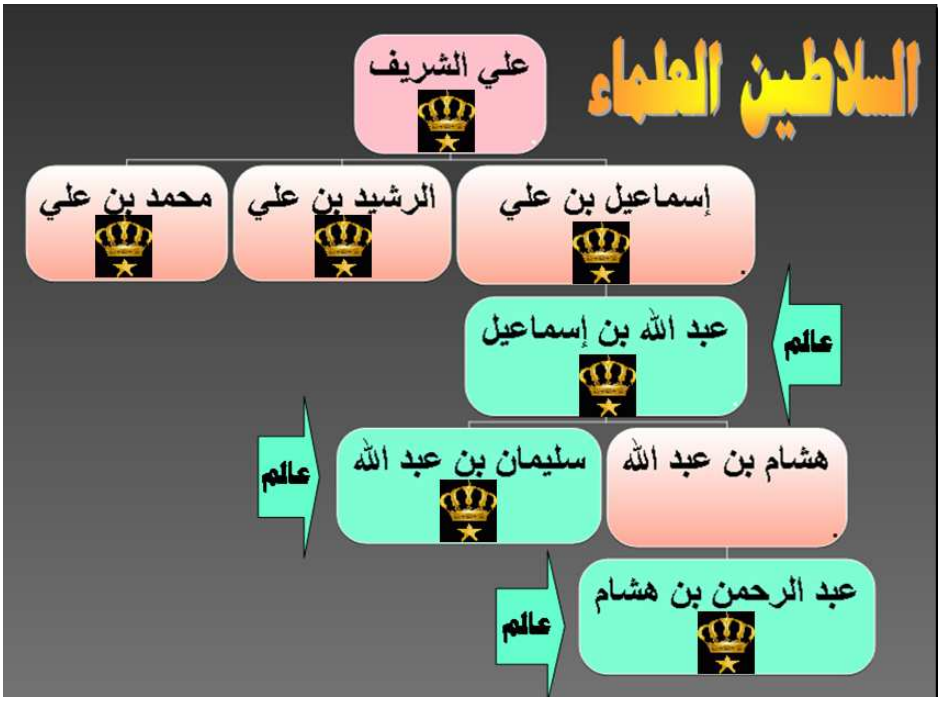

أ) **محمد بن عبد الله** (1121 هـ/ 1710 م – 1204 هـــ/ 1790 م) الذي حكم خلال الفترة (1171 هـ/1757 م - 1204 هـ/1789 م) ، وابنه:

ب) أبو الربيع: سليمان بن عبد الله (1173 هـ/1760 م – 1237 هـ/ 1822)

والذي حكم خلال الفترة (1206 هـ/1792 م - 1237 هـ/ 1822)، وحفيده:

ت) أبو الفضل: عبد الرحمن بن هشام الذي حكم خلال الفترة (1238 هـ/1822 م - 1276 هـ/1859 م)

الذين حاولوا تباعاً تدارك الموقف، كل من منظوره الخاص.

وستبدأ أول المحاولات الإصلاحية مع السلطان محمد بن عبد الله، الذي رام تدارك هذا الموقف المتردي في القرويين باللجوء إلى المسطرة القانونية الزجرية، فأصدر ظهيراً تنظيمياً مؤرخاً بتاريخ 1203 هـ/1788 م، يلزم فيه عموم أساتذة القرويين باعتماد توجيهات وضوابط صارمة في تدريسهم لتخصصاتهم المعرفية وفق المعايير التالية:

1) في الأصول: ألزمهم أن يكتفوا بتدريس كتاب الله وتفسيره باللغة والأثر.
2) في الحديث: أن يكتفوا بتدريس الكتب التي اشترطت إخراج الصحاح فقط كصحيحي البخاري ومسلم ونحوهما.
3) في الفقه: أن يكتفوا بتدريس كتب: "المدونة"[3]، و"البيان والتحصيل"[4]"، و"مقدمة ابن رشد"[5]، و"جواهر ابن شاس"[6]، و"النوادر"[7]، و"رسالة ابن أبي زيد القيرواني"[8]، وما شابهها من الكتب القديمة.

---

[3] "المدونة الكبرى" للفقيه أبي سعيد عبد السلام بن سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي المالكي (160 هـ - 240 هـ) التي رواها عن أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي (132 هـ - 191 هـ)، التي جمعها من أقوال الإمام مالك بن أنس (ت: 179 هـ). وهو من أهم كتب المالكية في الفروع. أنظر عبد الرحمن بن خلدون: "المقدمة" ص. 498، طبعة دار الجيل، لبنان بدون تاريخ.

[4] هو لابن رشد الجد محمد بن أحمد (ت: 520 هـ) وهو بيان وشرح وتعليل وتوجيه وتأويل وتحصيل للكتاب الذي جمعه محمد بن أحمد العتبي القرطبي (ت: 255 هـ/868 م) من عدة مصادر أولاها كتاب "الواضحة" لعبد الملك بن حبيب، وسماعات من أصحاب مالك: أبي القاسم، وأشهب، وابن نافع، ثم من تلامذة ابن القاسم: ابن وهب ، والليثي، وشبطون، وابن مرتيل، وسحنون، وابن أصبغ. وكلها عبارة عن مسائل نوازل، وتسمى ب "المستخرجة" أو "العتبية". وقد عالج ابن رشد مسائل "المستخرجة" في مسائل المذهب كما وردت دون تأصيل من الكتاب أو السنة. وقد لخصها ابن أبي زيد القيرواني في كتابيه: "المختصر" و"النوادر والزيادات على المدونة" ثم جاء ابن يونس التميمي (ت: 451 هـ) فنقل جل ما في "النوادر" وغيره من الأمهات في كتاب سماه: "مصحف المذهب" وهو أحد المصادر الأربعة الذي اعتمد الشيخ خليل في مختصره.

وأوجب كذلك على من رام تدريس "مختصر الشيخ خليل" في الفروع المالكية، أن يكتفي فقط بالشروحات الخمس لكل من:

أ) البهرام[9]،

ب) والموّاق[10]،

ت) والحطّاب[11]،

ث) والأجهوري[12]،

ج) والخرشي[13].

وبأن لا يتعدوا هذه الخمسة بحال إلى غيرها![14].

---

[5] هو كتاب للقاضي أبي الوليدمحمد بن احمد: ابن رشد الحفيد الأندلسي: وعنوانه الكامل: "المقدمات الممهدات في بيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات".

[6] أبو محمد، جلال الدين، عبد الله بن محمد بن نجم بن شاس بن نزار الجذامي السعدي المصري (ت: 616 هـ/1219 م) شيخ المالكية في مصر في عصره.

[7] هي لأبي زيد القيرواني: أبي محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النغزاوي القيرواني (310 هـ - 386 هـ) شيخ المالكية بالمغرب ويلقب بمالك الصغير.

[8] "الرسالة" تلخيص للمذهب المالكي وفيها أربعة آلاف مسألة فقهية وأربعمائة حديث. وتقول المصادر بأنه ألفها سنة 327 هـ، وعمره لم يناهز بعد 17 سنة!. وهذا عندي بعيد!. بل ذهب الشيخ زروق شارح مختصر السيد خليل إلى أنه ألف كتابه هذا وعمره 11 سنة!. وللرسالة من الشروح ما ينتظر لمثلها فشرحها تلميذه أبو بكر محمد بن موهب القرطبي المعوف بالمقيري (ت: 406 هـ)، والقاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (ت: 422 هـ)، وأبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي (ت: 741 هـ)، وأبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن يخلف الشاذلي المصري (ت: 939 هـ) وغيرهم. ولأبي الحسن ستة شروح على الرسالة، "غاية الأماني"، و"تحقيق المباني"، و"توضيح الألفاظ والمعاني"، و"تلخيص التحقيق"، و"الفيض الرحماني"، و"كفاية الطالب الرباني". وعلى الشرح الأخير كان اعتماد تلامذة القرويين في الأعصار المتأخرة.

[9] أبو البقاء، تاج الدين، بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز السلمي الدميري القاهري (734 هـ/1334 م - 805 هـ/1402 م). انتهت إليه رياسة المالكية في زمانه.

[10] أبو عب الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الغرناطي الشهير بالمواق (ت: 897 هـ/1492 م) كان عالم غرناطة في وقته وتوفي سنة سقوطها. وله كتاب "التاج والإكليل لمختصر خليل"

[11] أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المالكي المعروف بالحطاب (902 هـ - 954 هـ) من فقهاء طرابلس الغرب وله شرح على خليل باسم "مواهب الجليل لشرح مختصر أبي الضياء سيدس خليل".

[12] أبو الإرشاد نور الدين علي بن زين العابدين محمد بن عبد الرحمن بن علي الأجْهُوري (967 هـ/1560 م - 1066 هـ/1656 م) المالكي. القاهري. شيخ المالكية في عصره. برع في العربية والبلاغة والمنطق زيادة على الأصلين والفقه. وله شرح على شرح الزرقاني لمختصر خليل.

[13] أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الخرشي المالكي المصري (1010 هـ - 1101 هـ) له كتاب: "شرح على مختصر سيدي خليل". وقال في مقدمته: {قد وضعت شرحاً على مختصر أبي الضياء خليل يحتوي على تقييداته وفوائد يصعب فهمها على المبتدئين وغير الممارسين ثم أدركتني رحمة الضعاف حين طلب مني جماعة من الإخوان شرحاً آخر لا يكون قاصراً عن إفادة القاصرين فأجبتهم لذلك..}

[14] لاحظ أن هذه اختيارات ذوقية شخصية لمحمد بن عبد الله، ولا يوجد من بينها مؤلف لقروييني!.

قلت: وللتدليل على أن السلطان كان يعني ما يقول، فقد وجدناه لا يكتفي باستشارة العلماء والفقهاء المحليين، بل انفتح على فقهاء مصر موسعاً لدائرة النقاش والاستشارة.

ولعل القارئ قد لاحظ الآن، أن مراجع شروح المختصر الخليلي التي أقرها السلطان، هي ك "المختصر" ذاته، مصرية المنشأ.

ولأجل هذه الوشيجة بين مالكية مصر كأساتذة منشئين في الفروع ومالكية القرويين كتلامذة مقلدين وغير مبدعين، فقد راسل علماء مصر بخصوص إصلاح العدلية المغربية، المرتبطة رأساً بمقررات ما يدرس في القرويين من فقه، وزودهم بمسودة عمل، سرد فيها كل المسائل التي رام إصلاحها بندا بنداً وطلب منهم موافاته، برأيهم في كل مسألة مسألة من المسائل المعروضة عليهم مشفوعة بتوقيعاتهم.

بل هو أول سلطان مغربي، سيتبنى الخط العام للدعوة السلفية التي لهج بها محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (1115 هـ/1703 م - 1206 هـ/1792 م) بالحجاز بعد أن وقف عن كثب على منهج الدعوة وتفاصيل تطبيقاتها على الأرض، من خلال ما كان يوافيه به عنها، علماؤه الذين كان يبعثهم مع الحجيج المغربي في كل موسم حج.

وهي سنة سيلتزم بها أبناءه العلماء من بعده.

وقد قطع رحمه الله شوطاً بعيداً في التحرر من ربقة التقليد، حتى شاع عنه قوله بأنه: على مذهب مالك في الفروع والأصول، وعلى عقيدة الإمام أحمد في الاعتقاد[15].

قلت وكانت له عناية خاصة بالحديث النبوي الشريف، حيث عمل بجد على جلب مؤلفات كثيرة لم تكن متداولة بين المغاربة مثل:

أ) مسند الإمام أبي حنيفة،

---

[15] أنظر الناصري في "الاستقصا" (8: 68).

ب) ومسند الإمام أحمد وغيرهما.

بل سيذهب إلى التسوية بين المذاهب الأربعة، ويبرهن عملياً (بمساعدة فقهائه) عن قناعته الجديدة هذه بتأليفه لكتاب: "مسانيد الأئمة الأربعة"، حيث التزم ألا يدخل فيه، سوى الحديث الذي اتفقوا على إخراجه بإجماع منهم، ثم ثلاثة منهم، أو اثنان.

أما إذا تفردوا فلا يرويه عنهم ولا يدخله كتابه[16].

وهو ما سيفضي به منطقياً إلى التخلي عن العقيدة الأشعرية، التي كانت شائعة بين مقلدة ومجترة القرويين في عصره.[17]

قلت: ولربط أقواله بأفعاله مرة أخرى، فقد كلف ثلاثة من كبار فقهاء المملكة وهم:

أ) الشيخ التاودي بن سودة (ت: 1209 هـ/1795 م)[18]،

ب) وقاضي الجماعة بفاس أبا خريص عبد القادر[19]،

ت) والشيخ إدريس العراقي (ت: 1183 هـ/1769 م)[20] أن يتوزعوا فيما بينهم بالتساوي مهمة تأليف شرح على كتاب: "مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية" لرضي الدين، أبي الفضل، حسن بن محمد بن حسن بن حيدر العدوي الصاغاني الحنفي (577 هـ - 650 هـ).

وعندما توفي العراقي قبل إتمام شرحه، كلف السلطان ابنه:

ث) عبد الله بن إدريس بإتمام تلك المهمة الغير منتهية.

---

[16] أنظر الناصري في "الاستقصا" (8: 67)..

[17] أنظر: الهاشمي الفيلالي 1943: "السلطان سيدي محمد بن عبد الله"، مجلة "رسالة المغرب" العدد 7، ص. 9.

[18] أبو عبد الله محمد التاودي بن محمد الطالب بن محمد بن علي: ابن سودة المري الفاسي (1111 هـ/1700 م - 1209 هـ/1795)، شيخ الجماعة بفاس في عصره.

[19] أورد اسمه الناصري في "الاستقصا" (8: 3) ضمن من كان حاضراً أثناء البيعة العامة للسلطان محمد بن عبد الله التي حصلت يوم 27 صفر 1171 هـ/1757 م ولم يترجم له.

[20] أبو العلاء، إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون بن عبد الرحمن الحسيني العراقي الفاسي(1120 هـ/1705 م - 1183 هـ/1769 م). اشتهر بالحديث حتى أطلقوا عليه اسم سيوطي زمانه!. وذهب بعضهم إلى جعله فوق ابن حجر العسقلاني!. له شرح على شمائل الترمذي، والثلث الأخير من شرح "مشارق لأنوار" للصغاني،، ومختصر تاريخ الكامل في الضعفاء لابن عدي، ومختصر لتاريخ الخطيب البغدادي، و"فتح البصير في التعريف بالرجال المخرج لهم في الجامع الكبير"،..وغيرها.

ولئن اشتهر من الفقهاء من كان يدعو إلى نبذ التقليد، وعدم الجمود على المذهب، والانفتاح على المذاهب الأخرى، كما اثر عن المؤرخ وقاضي القضاة الشافعية بالشام في عصره أبي نصر، تاج الدين، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (727 هـ/1327 م - 771 هـ/1370 م)[21] إلا أنها كغيرها من الصيحات، ما كانت لتسمع صم القرويين أو الأزهريين، وفي التعيش بالمحفوظ غنية عن أي تجديد.

ويذكرنا عمل محمد بن عبد الله هذا، بما قام به الموحدون، عندما تبنوا التقويمية الحزمية

(نسبة إلى الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله) في الأصول[22]، لكن بمقاربة أكثر عقلانية، ورحابة صدر، وسلامة منطق، مما فعل الموحدون حين انقضوا على فروع المالكية يحرقونها في الساحات العامة في شطط وغلو غير مبررين[23].

لقد كانت مقاربته رحمه الله تنم عن تفهم عميق لمتطلبات الاستئنافية والمسايرة، وسط هذا الوسط الغارق في التقليد والجمود، الذي يصعب فطامه عما ألف واعتاد، ويتوجب بالتالي أخذه بالرفق والإقناع والتوأدة، وليس بالقطيعة المطلقة دون إعداد للأرضية ولا للعقول ولا للأفئدة.

وسوف يعاود الكرة من بعده، وبإلحاح أكبر، حفيده السلطان عبد الرحمن بن هشام (1238 هـ/1822 - 1276 هـ/1859 م)، الذي وطأ لإصلاحاته برسالة وجهها إلى قاضي فاس جاء فيها[24]:

---

[21] قال في كتابه: "معيد النعم ومبيد النقم": {وأما تعصبكم في فوع الدين، وحملكم الناس على مذهب واحد، فهو الذي لا يقبله الله منكم، ولا يجملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد. ولو أن الشافعي وأبا حنيفة، ومالكاً، وأحمد أحياء يرزقون، لشددوا النكير عليكم وتبرءوا منكم فيما تفعلون. فلعمر الله لا أحصي عدد من رأيته يشمر عن ساق الاجتهاد في الإنكار على شافع يذبح ولا يسمي، أو حنفي يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، يتركون الصلاة التي جزاء من تركها عند الشافعي ومالك وأحمد ضرب العنق ولا ينكرون عليه}.

[22] 4أنظر كتابنا: "4) صناعة الفقه: التقويمية الظاهرية".

[23] أنظر كتابنا: "شطحات لفقهاء بضاعتهم في الحديث الشريف بضاعة مجزاة: أبو حامد الغوالي والمهدي بن تومرت الموحدي نموذجاً"

[24] الرسالة محررة بتاريخ 12 محرم 1261 هـ/10 يناير 1845 م .أنظر:: " وأورد نصها عبد الرحمن بن زيدان في :"مجلة المغرب" السنة الخامسة، عدد نوفمبر ديسمبر لسنة 1936، تحت عنوان: "إحياء العلوم"، ص. 10-11، وكذلك في: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة" ص. 79-82، طبعة الرباط لسنة 1937.

ولد عمنا الأرضى الفقيه القاضي **مولاي عبد الهادي** وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبركاته وبعد،

فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدهم في الطلب، **غير أنه قل التحصيل والإفادة. وذلك لمخالفة الفقهاء في إقرائهم عادة الشيوخ، وإعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ.**

فإن الفقيه يبقى في سلكة "سيدي خليل" نحو العشر سنين!، وفي "الألفية"[25] العامين والثلاثة! لكثرة ما يجلب من الأقوال الشاذة، والمعاني الغريبة الفاذة، وكثرة التشعيب بالاعتراضات وردها، ومناقشة الألفاظ وعدها!، ويخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من السقيم، ولا المنتج من العقيم. وفي ذلك تضييع الأعمار التي هي أنفس المتاجر، بلا فائدة!، وتعمير الأوقات التي يرتجى نفعها بلا عائدة، فتجد الطالب يرحل في طلب العلم من بلاده، ويتغرب عن أهله وأولاده، ويقيم المدة المتطاولة، لا يحصل مع كثرة دؤوبه على طائل، ولا يقف على محصول ولا حاصل. فترى الفقهاء يكثرون على المبتدئ من نقول الحواشي والاعتراضات، وينوعون الأقوال والعبارات، حتى لا يدري ما يمسك، ولأي سبيل يسلك، ويقوم من مجلس الدرس أجهل مما كان!، ولا يحد زيادة مع بلوغه في نفسه الإمكان.

وهذا يؤدي إلى ضياع العلم الذي هو ملاك الدين، ويحمل على عموم الجهل في العالمين. وما هكذا كان يفعل أهل الإفادة والتحرير، الذين يحرصون على نفع طلبة العلم رغبة فيما عند الله الأجر الكبير.

فقد كانوا يسهلون لهم طرق العلم واستفادته، ويرتكبون ما يقرب تحصيل العلم وزيادته، ويتنزلون لعقول الطلبة على قدر أفهامهم، ويحتالون على حصول الفهم والعلم للمتعلمين بلطيف عبارة ملامهم، حتى يحصل اللبيب على مراده في أقرب أوان، ولا يضيع عمره سبهللاً من غير تحصيل ولا عرفان، إذ كان مقصودهم في ذلك الله ونشر العلم والعمل، لا التفصح والتمشدق الذي يحصل معه الخلل والملل، ولا ينجح معه لذي أرب أهل.وهذا أمر يجب التنَبُّه عليه، ويتأكد في جلب أرباب المناصب الجنوح إليه، إذ في الحديث: "الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين وعامتهم."

ثم شرع رحمه الله في تفصيل ما يجب على القيمين بالتدريس اتخاذه من إجراءات إصلاحية في التعليم بقوله:

فبوصول كتابنا هذا إليك، اجمع المدرسين وارشدهم لما فيه المنفعة العامة، والفائدة التامة، وهو الاقتصار في التقرير على حل كلام المؤلفين، وإفهامه للسامعين المتعلمين، مع التنبيه على ما

---

[25] هي المشهورة ب "الخلاصة" أو "ألفية مالك في النحو". وهي لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك، جمال الدين الطائي الجياتي النحوي نزيل دمشق (600 هـ - 672 هـ).

فيه من خطأ وتحريف من غير إكثار هذر، ولا تشغيب بترداد اعتراضات وطرر، إذ المقصود هو حصول الفهم والإفادة، والمناقشة في الألفاظ إنما هي لغو وزيادة، وليست لأهل التحرير بعادة إلى فهم المنقول. فلا ينبغي في الفقه مناقش الألفاظ، ولا نقل كل ما سوده الحفاظ، بل ينبغي الاقتصار على بسط المسائل وفصولها وتقريبها للفهم بتقرير أصولها.

فلا يجاوز الفقيه في سلكة "خليل" العام، وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في "الألفية "الشهر والشهرين، كما كان يفعل ذلك جهابذة العلم من نقاده، بل كانوا يسردون خليلاً في أربعين يوماً والألفية في أقل من ذلك، ويحصل للطلبة في ذلك علوم جمة، ومسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التماطل والتطويل وعمارة الأوقات بما ليس عليه تعويل، ولينظروا في سيرة من قبلهم في التدريس والإلقاء ويسلكون ما هو أقرب للتحصيل، وأمس بتسهيل الفهم والإقراء، فبهديهم فليقتدوا، وبأقوالهم فليهتدوا ليستفيدوا ويفيدوا ويبدعوا ويعيدوا ويحصل الطلبة الغرباء في ذلك على مرادهم، ويدركوا ما يسر الله على قدر استعدادهم والله ولي التوفيق.

قلت: صرخة في فلاة!!!!!!!!

لأن التاريخ سيثبت مرة أخرى، أن فيما يخص القرويين وخريجيها، فقد ظل شعارهم المرفوع بينهم على الدوام، والذي عليه إجماعهم بين كل أجيالهم، ولا يبغون عنه حولاً هو:

أن لا سلطان يعلو فوق سلطان الجمود والتقليد

أي أنهم بكل بساطة، خضعوا لمنطق الجاذبية الأرضية في الجمود والخمول، في إطار قصورهم الذاتي، ما يخضع الحجر الجلمود للسكون إذا لم يؤثر فيه مؤثر من خارج!.

وهذا كان حالهم مع مبادرات هؤلاء السلاطين العلماء، فما أن يقضي السلطان، حتى تعود حليمة إلى عاداتها القديمة، وكفى الله المقلدة شر القتال إلى أن سلط الله عليهم مؤثراً من خارج أنفسهم، لتقوم قيامتهم، لكن حين ولات مناص!

وهل يكون غريباً، والحال هذه، وفيما يشبه القصص الممل المكرور، أن يطلع علينا من جديد، وبعد مرور زهاء القرن على هذه التوجيهات، التي لم يعمل بها أحد، نائب الصدر الأعظم في

المعارف والعلوم، الشيخ محمد بن الحسن الحجوي (ت: 1376 هـ/1956 م)[26]، ليسجل هذه المفارقة التي عايشها بنفسه كطالب بالقرويين، ثم كمسؤول عن إصلاح التعليم القرويني، ما سعايشها الطالب علال الفاسي نفسه وجيله وأجيال قبلهم، كضحايا مختبر ومنهج وموروث وهو يردد![27]:

فالتلميذ عندنا يخرج من الكتاب أو "**المسيد**" **وسنه نحو العشرين سنة وما تعلم سوى تركيب الكلمات**، (...) أما إنشاء كتاب وقراءة جريدة أو فهم مكتوب، **فلا بد له من أن يزاول دروس القرويين سبع سنين أو ثمان سنين أخرى!، فيكون ناهز الثلاثين، وهو لم يحصل إلا على ما يعتبر علماً ابتدائياً عند غيرنا من الأمم، وبقيت عليه علوم، وقد أدركه إبان الزواج** والاشتغال بالأولاد!.

قلت: وهكذا ظل طلبة القرويين يفنون شطراً من أعمارهم أو أكثر في محاربة الأمية الدينية، وفيما لا طائل تحته من المعارف، التي، ليس فحسب، لم تعد تنفع صاحبها، بقدر ما أصبحت تضره أيما ضرر، لأنها ظلت تعمل على إخراجه من عصره الذي يعيشه كواقع ملموس

---

[26] محمد بن الحسن بن العربي بن محمد الثعالبي الجعفري الفيلالي الحجوي (1291 هـ/1874 م - 1376 هـ/1956 م) تخرج من القرويين ودرس بها وهو ابن خمسة وعشرين سنة. والتحق بديوان السلطان المولى عبد العزيز في عهد الحاجب أحمد بن موسى سنة 1899 وأسندت إليه مناصب إدارية، منها النيابة عن السلطان في حدود المغرب الشرقية في أحلك ظرف تاريخي كان يمر به المخزن المغربي مع بروز الأطماع الفرنسية في احتلال المغرب. وكلف بتطبيق الأوفاق الفرنسية المغربية لسنة 1901 و1903، الموقعة بين البلدين، وأسندت إليه مهمة تنظيم حراسة الحدود الشرقية والإشراف على الشؤون المالية بمدينة وجدة. وعمل أيضاً عضوا في المجلس الإداري المكلف بتسيير وتدبير الأحباس (الأوقاف) المغربية في كل من مدينتي مكة والمدينة وسافر إلى الخارج عدة مرات {أنظ كتابه:

"ارحلة الأوروبية" الصادر سنة 1919 م وقد ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان: " *Voyage d'Europe, le périple d'un*

réformiste" ، مما أعطاه بعداً لم يكن يتوفر للكثير من رجالات المخزن. وكان نزيها وجاداً وصاحب غيرة على البلد وأهله

وشغل عدة مناصب إبان الحماية الفرنسية سنة 1912. وهو صاحب كتاب: " الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"

[27] الحجوي: "محاضرة عن إصلاح التعليم"، ص. 2. ضمن مجموعة الحجوي المحفوظة بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

لتلج به عوالم مهجورة من عوالم التاريخ، التي لم يعد يسمع لأصحابها من حس ولا ركز، اللهم فيما يجترون عنهم من حكي في كتب فروعهم الصفراء!.

هذا، في الوقت الذي كانت فيه هذه المدة التي يقضيها الطالب بالقرويين، جد كافية لحصوله على شهادة عليا من جامعات عصرية مثل الدكتوراه، أو ما يعادلها من الدرجات، وفي أقل فترة زمنية مما يمضي فوق حصيره المتآكل وغير المريح بالقرويين!.

بل لم تكتف الجامعة التليدة بالتحجر والتكلس وعدم الانضباط، حتى انضافت إليها آفات أخرى مصاحبة ومواكبة، كالإهمال وعدم الاكتراث، وسوء الإدارة والتنظيم!.
وهي عوامل ملازمة للتحجر على أيّ حال!.

والأنكى، هو أن يحصل كل هذا في الوقت الذي شرع فيه الاستعمار الفرنسي في إنشاء تعليم أهلي عصري نظامي موازٍ، سيؤدي في النهاية إلى إخراج القرويين من الساحة الفكرية للمغاربة، دون اكتراث أو مبالاة من أحد!.
يقول الحجوي[28]:

القرويين مهملة ودروسها ليست جارية على نظام ولا توجد الدروس فيها إلا في نحو ثلاثة أشهر تلتقط من مجموع السنة!

قلت: وهذا يعني أنه كان بالإمكان، عملاً بتوجيهات عبد الرحمن بن هشام، أو الحجوي من بعده بقرن، تقليص مدة الدراسة بالقرويين إلى الخمس، أو الربع بالنسبة لسائر الطلبة، وربما أكثر بالنسبة للنابهين أو النبغاء منهم!.

وهو ما ظل صيحة في صحراء تيه التقليد المقفر للقيمين على القرويين.

---

[28] الحجوي: "بنقية المعارف"، ص. 145، ضمن مجموعة الحجوي المحفوظة بقسم المخطوطات بالخزانة العامة المغربية، تحت رقم: ح 127.

هذا بخصوص العلوم الشرعية، فما بالك بالعلوم الأخرى، التي لا قيام لدولة بدونها والاستعمار يطرق الأبواب بشدة ليلج البلد !

ولو أن العلوم الشرعية، لم تكن قد أصيبت في مقتل، من جراء مثل هذا التقليد البليد، وهذا الجمود الماسخ للقرائح وللأفئدة والأفهام، الذي طبع الفقهيات الفروعية عامة، والمالكية منها خاصة، ومنذ الإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله، لكان لتدريس علم المقاصد في حد ذاته، من وجهة نظر منظورية بحتة، أن يلعب دور المحفز أو الرافعة لملكات الاجتهاد والاستئنافية عند هذه الزمرة المتكلسة من الفقهاء، ودور الريادة، كقاطرة، من جهة استحداث واستتباع علوم أخرى لم تكن، من خلال الآليات والمناهج التي كان يوفرها "الأنموذج المنظوري الإرشادي الإسلامي العام"، فكراً وممارسة!.

لكن، هبت رياح التغيير من حيث لا تشتهي أشرعة سفن الإصلاح!.

وهكذا ظلت الرؤية المنظورية التي جاءت بها "موافقات" الشاطبي، حبيسة الرفوف المغبرة وطعمة للأرضة، وبمنآى عن مدارك رجالات القرويين واهتماماتهم لقرون، وهم يعيدون اكتشاف العجلة! والنار! في كل مرة، وللمرة الألف!، غارقين في فروعهم وسادرين في فقه نوازلهم التي شكلت رؤاهم التجزيئية إلى الفرد وإلى المجتمع وإلى العالم، إلى أن خرجوا منه بدورهم مرغمين، ليس بسبب من عامل الاستعمار وحربه للإسلام كأثر مباشر أو رئيس، وإنما بحسب قانون سنن التداول بين الأمم، الذي لا يرحم، وإلا توقف نبض الحياة وفسدت السموات والأرضون ومن فيهن.

فبحكم هذه القوقعة التي غلفتهم، وهذه الجدلية القاتلة التي حكمتهم استحقوا الموت جزاءاً وفاقاً[29].

ولم يكن لتدخل الاستعمار، من هذه الحيثية سوى ما ليد القدر، التي تعمل وفق برنامجها الأزلي المكتوب، الذي لا يحيد ولا يزيغ عما خطط له في الأزل، مع ما صاحبهم جميعاً من تغير أوضاع ووقائع ونوازل، قبل أن يتوقف قطار متن الشيخ خليل ويحط برحاله عند علال الفاسي

[29] أنظر كتابنا: "أين كانت القرويين وأين كان رجالاتها يوم أن صلى إبليس على مذهب مالك، ثم ركب الغمام وارتحل؟".

وجيله مطلع القرن العشرين، كتمرين في العبثية واللامعقول الديني!، جاراً معه كل قاطرات شروحه الألفية التي لو نشرت صفحاتها جنباً إلى جنب على بساط واحد، لامتدت طولا لمئات الأمتار![30].

لذلك، لن نستغرب كثيراً ألا يفيد علال الفاسي كثيراً من دروس القرويين، ولا في أن لا يدين بتكوينه الذي صنع شخصيته لمثل هذا التعليم، وأن يتعلم كعصامي من مدرسة الحياة مباشرة، ومن نبض التحديات التي واجهته، فحكته وعركته سجناً ومنفى، وصنعت من شخصه ما صنعت.

انتهى وتليه الحلقة الثالثة:

البعد السياسي في حياة علال الفاسي

[30] منهم من شرح المختصر الخليلي نظماً بما ينيف عن أربعة آلاف بيت من الرجز (4000) كما فعل الشيخ محمد المام الصحراوي (1202 هـ/1787 م - 1281 هـ/1864 م)، وشرحه نظماً أيضاً الصحراوي المعاصر محمد عبد الله بن عبد القادر (1287 هـ/1870 م - 1386 هـ/1966 م) في حوالي ثلاثة آلاف بيت (3000) ليسهل حفظه كما يقولون!!!!. أنظر: الجيلاني لعبدا السالمي في بحث بعنوان: "خدمة المذهب المالكي في الصحراء المغربية" (3: 277-279) في: "ندوة الإمام مالك" المنعقدة بفاس للفترة 9-12 جمادى الثانية 1400 هـ/25-28 أبريل 1980 م،منشورات وزارة الأوقاف المغربية.